المحاضرة (14)

عُنْوَانُ المُحَاضَرَةِ: أزمة النقد المعاصر

المدةُ: ساعة

الفئةُ المُستهدفةُ: طلبة السنة الثانية ماستر، تخصص: أدب عربي حديث ومعاصر

تمهيد:

يُحَاوِلُ النَقْدُ الأَدَبِيُ المُعَاصِرُ عَامَةً الإِجَابَةَ عَنْ إِشْكَالِيَةٍ أَسَاسِيَةٍ، تَتَمَثَّلُ فِي كَيْفِيَةِ التَعَامُلِ مَعَ النَصِ الأَدَبِي، وتَبْرُزُ تِلْكَ الإِشْكَالِيَةُ فِي الصِرَاعِ المُمْتَدِ بَيْنَ فَرِيقَيْنِ: الأَوَّلُ: يَكْتَفِي بِالتَرْكِيزِ عَلَى العَلاقَاتِ الدَاخِلِيَةِ لِلنُصُوصِ (مَضْمُونَهُ)، مُغْفِلاً دَلاَلَةَ النَصِ، بَيْنَمَا الثَانِي: يَهْتَمُ بِالدَلاَلَةِ وبِالعَلاقَاتِ الدَاخِلِيَةِ لِلنُصُوصِ، مُغْفِلاً -حتَى ولَو بِطَرِيقَةٍ غَيْرِ مُبَاشِرَةٍ- البِنْيَةَ الذَاتِيَةَ لِلنَصِ (شَكْلُهُ)، وَبِهَذَا سَيَخْضَعُ النَصُ الأَدَبِيُ لِمُعَادَلَةٍ ثُنَائِيَةٍ؛ إِذْ سَيُعَانِي مِنْ مِطْرَقَةِ عَزْلِ النَصِ عَنْ إِطَارِهِ العَامِ (النَسَقُ)، ومِنْ سِنْدَانِ إِغْفَالِ القَوَانِينِ الخَاصَةِ المُتَحَكِّمَةِ بِهِ، تَحْتَ شِعَارِ تَأْكِيدِ علاقةِ النصِ بالخارجِ (السِيَاقُ)*.

لِيَكُونَ السُؤَالُ كَالآتِي: هَلْ تَكْمُنُ الإِشْكَالِيَةُ فِي التَرْكِيزِ عَلَى بِنْيَةِ النَصِ، دُونَ إِدْرَاكٍ بِأَنَّ الدَلاَلَةَ جُزْءٌ لاَ يَتَجَزَّأُ مِنْ تِلْكَ البِنْيَةِ؟ أَمْ تَكْمُنُ فِي التَرْكِيزِ عَلَى الدَلاَلَةِ؟ أَمْ تَكْمُنُ فِي كِلاَ النَّهْجَيْنِ؟

1- النَقْدِ الأدبي المُعَاصِرِ: من انفتاح البنية إلى انغلاقها:

لَقَدَ أحدثَت الدراساتُ الحداثيةُ في النقدِ المُعاصرِ، بدايةً معَ الشَكلانِيينَ الرُوسِ، مُرورًا بالبِنيَويينَ، وصُولاً للسِيميائِيينَ (المناهجُ الحداثيةُ)، ثورةً كبيرةً فِي مَجَالِ البَحثِ الأدبِي عامةً، والسردِي والحِكَائِي خاصةً، لـ "نُزوعِهَا إلى التعامُلِ معَ النُصوصِ تعامُلاً قريبًا مِنَ العِلمِ والموضُوعيةِ"[1]، ونَقلِهَا لِلقرَاءَةِ النَقديةِ، مِنْ وَضعِ الانطبَاعِ والكلامِ الإنشائِي، إلى التحليلِ المُؤسَّسِ مَعرِفِيًا وجَماليًا، وهذَا مَا حَاولَت البنيويةُ والسيميائيةُ والتفكيكيةُ تحقِيقهُ بعدَ ذلكَ؛ لأنَّ "السيميائياتَ ساهَمت بقدرٍ كَبيرٍ في تجديدِ الوعِي النقدِي، مِنْ خِلالِ إعَادةِ النَظرِ في طريقةِ التعاطِي مع قضَايَا المَعنى"[2]، حيثُ كانَ هدفُهَا السعيَ إلى تشييدِ لُغةٍ عِلميةٍ مُنسجمَةٍ أكثَرَ، مِنْ أجلِ الوصُولِ إلى أنماطِ اشتِغالِ العملِ الأدبِي، مِنْ خِلالِ تطبيقِ مبدأ المُحايثةِ أثناءَ تجرُبةِ القِراءةِ والتحليلِ، يقولُ "رولان بارت": "إنَّ النصَ ليُصنَعُ مِنَ الآن فصَاعِدًا، ويُقرَأُ بطَرِيقةٍ تَجعلُ المُؤلفَ عنهُ غائِبًا على كُلِّ المُستوياتِ"[3]، وذلكَ يكونُ بمفصَلةِ المَضمونِ الشَامِلِ، بِصَرفِ النَظَرِ عَن الاِعتِبَارَاتِ الخَارِجَةِ عَنِ النَصِ، حيثُ تقتصرُ "السيميائيةُ على وصفِ الأشكَالِ الدَاخِليةِ لِدَلاَلةِ النصِ، أو التمفصُلاتِ المُشكِّلةِ لِلعَالمِ الدَلاَلِي المُصَغَّرِ"[4]، مِنْ خِلالِ خَلقِ التَفرُّدِ وخَلقِ الخُصوصِيةِ، فِي تَحلِيلِ النُصوصِ الأَدَبِيةِ، بتطبِيقِهَا للمَنهجِ العِلمي عَلى هَذِهِ النُصوصِ.

وهذَا المَبدأُ الذِي يرتَكِزُ عَلى دَاخِلِ النَصِ، يَرجِعُ في الأَسَاسِ إلى الدِرَاسَاتِ اللسَانِيَةِ واللُغَوِيَةِ، والداعِيَ لمَبدأِ الاِستِقلاَلِيَةِ، الذِي دعَا إليهِ اللِّسانِي السُويسرِي "فرديناند دي سوسير"، وبِهذَا "وَجَدَ التَحلِيلُ الأَدَبِي المُعاصِرُ، -فِي مَا حَمَلَهُ إليهِ عِلمُ اللغةِ-، مُنطَلَقًا نَحو بِنَاءِ أَسَاليبٍ جَديدةٍ فِي دِرَاسَةِ النُصُوصِ، وسَنَدًا في كَسرِ الرَّتَابةِ، التِي سَادَت الدِرَاسَاتَ الأدبيةَ زمنًا"[5]، ومِنهُ فالتَحلِيلُ الدَاخِلي المُحايِثُ ابتدأَ مَعَ "دي سوسير"، ليتَطورَ بِصُورَةٍ جِدِيّةٍ معَ الشَكلانيينَ الرُوسِ، لتَتوسَّعَ وتتطورَ أكثَر هذهِ الدِرَاسَاتُ مَع الجُهودِ،

التِي قَامَ بِهَا البِنَائِيُونَ والمُهتَمُونَ بِحَقلِ السِيمِيَاءِ، خَاصةً "ج . غريماس"، الذِي قدَّمَ فِي كِتَابِهِ: (عِلْمُ الدَلاَلَةِ البِنيَوِيَةِ) سنة 1966م، تَطوِيرًا شَامِلاً لِمَنهَجِ التَحلِيلِ الوظَائِفِي عِندَ "فلاديمير بروب".

الفَرقُ بينَ نَظرِيَةِ "ف. بروب" ومَا جَاءَ بِهِ "غريماس"، هُو أنَّ هَدَفَ الأَوَّلِ كَانَ دِرَاسةُ نَوعٍ مُعَينٍ مِن القَصِ، والذِي هُو الحِكَايَةُ الخُرَافِيَةُ، فِي حِين هَدَفَ "غريماس" إلى الوصُولِ إلى القَوَاعِدِ الكُلِّيةِ لِلقَصِ عُمومًا، وذلكَ بِتَطبِيقِهِ التَحلِيلَ الدَلاَلِي لِبنيَةِ الجُملَةِ عَلى هَذِهِ القَوَاعِدِ، و"مَا قَامَ بِهِ مِن تَطوِيرٍ لِنَظرِيَةِ "بروب" إنَّمَا يَسِيرُ فِي اِتِجَاهِ التَنمِيطِ الفُونِيمِي"[6]، بِقِيَامِهِ بِاستِبدَالِ مَجَالاَتِ الحَدَثِ السَبعَةِ عِندَ "بروب"، بِثَلاَثَةِ أَزوَاجٍ مِنَ الثُنَائِيَاتِ المُتعَارِضَةِ، تَضُمُ كُلّ الأَدوَارِ (الذَواتِ) الأَسَاسِيَةِ لِحُبكَةِ القِصةِ، واكتشافِ مَدَى إمْكَانِيَةِ اِجتِمَاعِهَا مَعًا، ومَا يَختلِفُ فِيهِ "غريماس" عَنِ الشكلاني "ف. بروب": "أَنَّهُ يَنظُرُ إلى القِصَةِ عَلى أَنَّهَا بِنيَةٌ دَلاَلِيةٌ مُشَاكِلَةٌ لِلجُملَةِ، لا تَنصَاعُ إلاَّ لِلتَحلِيلِ المُنَاسِبِ"[7]، بِالبَحثِ عَنْ نَحوٍ لِلرِوَايَةِ، يَرتَكِزُ بِدَورِهِ عَلى عَدَدٍ مَحدُودٍ مِنَ المَبَادِئِ، التِي تَتَوَلَّدُ عَنْهَا الأَقَاصِيصُ، كَمَا أدَّى اِحتِفَاءُ "بروب" بالوظيفةِ، بِجَعلِهَا مِحوَرَ النَصِ الرَئِيسِي، إلى "إهْمَالِ الشَخصِيَاتِ، التِي تَقُومُ بِهَذِهِ الوظَائِفِ وتُؤَدِيهَا، وتُسَمِيهَا بِمُسَمَاهَا"[8]؛ لأَنَّ الشَخصِيَةَ فِي نَظَرِهِ لاَ أَهَمِيَةَ لَهَا، والمُهِمُ هُو مَا تُقدِّمُهُ مِن وَظَائِفٍ.

وتَصَوُّرُ "ف. بروب" هَذَا لَمْ يَدُمْ طَوِيلاً، رُغْمَ مَا أَحْدَثَهُ مِنْ تَغْيِيرٍ فِي الدِرَاسَاتِ السَردِيَةِ، لِمَا قدَّمَ مِنْ مُقتَرَحَاتٍ سَاهَمَتْ فِي تَعْمِيقِ التَحْلِيلِ السَردِي؛ كَوْنَ تَصَوُّرِهِ أَحدَثَ قَطِيعَةً مَعَ التَصَوُّرِ النَقدِي التَقلِيدِي، والذِي ظَلَّ سَائِدًا قَبلَ ذَلِكَ عَشَرَاتَ السِنِينِ، لِيُؤَسِّسَ بِذَلِكَ تَصَوُّرًا جَدِيدًا، أُعتُبِرَ نُقْطَةَ الإنطِلاَقِ لِبَاقِي النُقَادِ، الذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعدِهِ، أَمثَالَ "جوليان غريماس"، لِنَصِلَ إلى أَنَّ "دِرَاسَةَ الحِكَايَةِ الخُرَافِيَةِ فَتَحَت طَرِيقًا مَنهَجِيًا جَدِيدًا"[9]، وتُعَدُّ أَعمَالُ كُلٍ مِنْ الأنثرُوبُولُوجِي "كلود ليفي شتراوس" والشكلاني "ف. بروب"، - التِي اِستَفَادَ مِنْهُمَا "غريماس" كَثِيرًا-، المَنْبَعَ نَفْسَهُ لِلسِيمِيَائِيَةِ الفِرنسِيَةِ، التِي لاَ تَزَالُ تَغْتَنِي مِن صِلَتِهِمَا، وهَذَا أدَّى إلى نُشُوءِ "تَصوُرَاتٍ جَدِيدَةٍ عَنِ الأَبْنِيَةِ السَردِيَةِ، وتِقَنِيَاتِهَا التَحْلِيلِيَةِ"[10].

لِيَقُومَ "غريماس" بِإسقَاطِ مَا جَاءَ بِهِ "بروب" عَلى الأَدَبِ المَكتُوبِ، بَعدَمَا كَانَ حِكرًا عَلى الأَدَبِ الشَفَوِي، لِيَصِلَ إلى أَدَبِيَةِ الخِطَابِ فِي النُصُوصِ عَامَةً، وكَانَتْ تِلكَ أَوَّلَ خُطْوَةٍ تَجرِيبِيَةٍ لإثْرَاءِ آلِيَاتِ تَحلِيلِ الخِطَابِ السَردِي، مِنْ خِلاَلِ اِستِعَانَتِهِ بِمَا قدَّمَهُ "بروب"، فِي مَجَالِ الحِكَايَةِ الخُرَافِيةِ، وهَذَا يُفَسِّرُ مَدَى مِصدَاقِيَةِ البَحْثِ عِندَ "غريماس"؛ لأَنَّهُ "سَعَى إلى إحْدَاثِ قَطِيعَةٍ مَعَ المُمَارَسَةِ النَقدِيَةِ التَقلِيدِيَةِ، وإعطَاءِ الأولويةِ فِي التَعَامُلِ مَعَ النُصُوصِ إلى التَفكِيرِ العِلمِي"[11]، وبالرُغمِ مِن التَّغيِيرَاتِ التِي أَقَامَهَا عَلى أُنمُوذَجِ "بروب" الوظيفي، إلاَّ أَنَّهُ يَعتَرِفُ بِقِيمَتِهِ، ويَرَى أَنَّ هذَا الأَخِيرَ قَد تَرَكَ تُراثًا مَنهَجِيًا، مِنَ المُمكِنِ الإسْتِفَادَةَ مِنهُ لِتَطوِيرِهِ، حتى يُصبِحَ مَنهَجًا عَامًا، فَهُو قَد اِستَثْمَرَ "بَعضَ مِيراثِ الشَّكلِيَةِ الرُوسِيَةِ فِي القِصّةِ والرِوايَةِ، خَاصَةً كِتَاب "بروب" الشهير(مُورفُولُوجيا الحكايةِ الشعبيةِ)"[12].

غيرَ أنَّ المفاهيمَ النقديةَ، والإجراءات النوعِية العَمليَة في تناولِ النصُوصِ والتفاعلَ معَها، تتضمنُ في ثَنايَاهَا قِيمًا جَمالِيةً، ولا شكَّ أنَّ التفاعُلَ بينَ قِيمِ النَاقدِ وقِيمِ النصِ، لا ينطلقُ مِن فراغٍ، ولا يَتمُ في فراغٍ؛ إذْ لابُدَ لهُ مِنْ حَقلٍ هُو إطارُ المُجتمعِ، لذَا فإنّ الكيفيةَ التي يتعاملُ بِها الناقدُ الحداثِي، بعزلِ النصِ عن إطارِهِ الخَارجِي، لا تعكِسُ كَثِيرًا قِيَّمهُ الجَماليةُ النصّيةُ، والحَلُ يكمنُ في ربطِ النصِ بِقِيَّمِهِ الجَماليةِ الحَياتيةِ، التي تمتدُ بدورِها لتُبيّن الموقِفَ مِنَ القِيَّمِ الاجتماعيةِ السائدةِ، وهذَا ما حاولت البنيويةُ التكوينيةُ مُمَثّلةً في رائدِها "لوسيان غولدمان" تحقيقهُ**؛ كونَها رُؤيةٌ في النقدِ توضّحُ دورَ النصِ وموقعهُ الحقيقي في العمليةِ: الاجتماعيةِ / التاريخيةِ / الثقافيةِ، وهنا تبدُو العلاقةُ الحميمةُ بينَ المُمارسةِ النقديةِ والقِيمِ الجَماليةِ الاجتماعيةِ السائدةِ، وبينَ النقدِ والحُريةِ / وبينَ النقدِ والإيديولوجيا / وبينَ النقدِ والإطارِ الحضارِي العامِ.

2- تجربة الآخر النقدية، وسُبلُ انفتاحِ النقد العربي المعاصر عليها:

لقد حَاوَلَ المُفَكِرُونَ والنَقَادُ العَرَبُ اِسْتِحْضَارَ هَذِهِ التَجْرُبَةَ، اِسْتِحْضَارًا يُكَافِئُ بَينَهَا وَبَيْنَ التَجْرُبَةِ العَرَبِيَةِ، بِوَصْفِهَا -فِي وُجْهَةِ نَظَرِهِمْ- مُؤَسَّسَةً تَحْتَكِرُ الحَقِيقَةَ، وتُمَارِسُ إِقْصَاءَ الرَأْيِ المُخَالِفِ، فَذَهَبَ هَؤُلاَءِ المُفَكِرُونَ إلى الاِسْتِدْلاَلِ عَلَى آرَائِهِمْ، بِشَوَاهِدٍ مِنَ التَارِيخِ العَرَبِي الإِسْلاَمِي، وهِيَ فِي الغَالِبِ أَمْثِلَةٌ فَرْدِيَةٌ ومَحْدُودَةٌ، لاَ تُمَثِّلُ الوُجْهَةَ العَامَةَ لِلمُؤَسَّسَةِ الدِينِيَةِ العَرَبِيَةِ، فَقَدْ كَانَ لِلتَأْوِيلِ -الذِي سَبَقَ وأَنْ ذَكَرْنَا مَدْخَلَهُ إلى عَمَلِيَةِ المُثَاقَفَةِ- الأَثَرَ المَرْكَزِيَ فِي مُحَاوَلَةِ المُمَاثَلَةِ هَذِهِ، وَبِذَلِكَ اِصْطَنَعَ المُفَكِرُونَ وَاقِعًا مُشَابِهًا، إِنْ لَمْ نَقُلْ مُمَاثِلاً لِلوَاقِعِ الغَرْبِي، بُغْيَةَ الوُصُولِ إلى نَتَائِجٍ مُتَطَابِقَةٍ، وَتُمَثِّلُ التَجْرُبَةُ الغَرْبِيَةُ تَمَثُّلاً كَامِلاً، عَنْ طَرِيقِ إِفْرَاغِ الأَنَا، اِبْتِدَاءً مِنْ مَضْمُونِهِ الثَقَافِي، وَتَسْوِيَتُهَا بِالآخَرِ.

فَانْطَلَقَ البَعْضُ مِنْ مُسَلَّمَةِ أَنَّ "الغَرْبَ مِرْآةٌ تُسَاعِدُنَا عَلَى رُؤْيَةِ أَنْفُسِنَا، فِي السُلَّمِ الحَضَارِي، وَتُحَدِّدُ لَنَا عَلَى أَيَّةِ دَرَجَةٍ نَقِفُ، وَكَيْفَ سَنَتَوَجَّهُ، وَأَيَّةُ أَدَوَاتٍ نَسْتَعْمِلُ لِاسْتِكْمَالِ مَشْرُوعِ المُعَاصَرَةِ"[13].

وَهَذَا يَسْتَدْعِي إِعَادَةَ نَظَرٍ جَادَةٍ فِي مَشْرُوعِ الثَقَافَةِ، وَخَاصَةً عَلَى مُسْتَوى النَظَرِيَةِ النَقْدِيَةِ، مِنْ أَجْلِ الوُقُوفِ عَلَى حَقِيقَةِ النَمُوذَجَينِ العَرَبِي والغَرْبِي، وُقُوفًا يَسْمَحُ بِالتَصَوُّرِ الأَمْثَلِ لِهَذَينِ النَمُوذَجَينِ، وعَلَى الأُسُسِ الجَوهَرِيَةِ التِي يَصْدُرَانِ عَنْهَا، مِنْ جَانِبٍ آخَرٍ فَإِنَّ مُرَاعَاةَ السِيَاقِ التَارِيخِي لِلمَعَارِفِ المُسْتَحْضَرَةِ مِنَ البِيئَةِ الغَرْبِيَةِ، أَمْرٌ لاَبُدَّ مِنْهُ لِلفَصْلِ بَيْنَ مَعْرِفَةٍ مَحْدُودَةٍ فِي التَارِيخِ والظَرْفِ الزَمَنِي، ومَعْرِفَةٍ مُمْتَدَّةٍ، ولاَ يَخْفَى أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَظَرِيَاتِ والمَنَاهِجِ، لاَ تَعْدُو أَنْ تَكُونَ مُتَّصِلَةً بِظَرْفٍ تَارِيخِي مُحَدَّدٍ، بِدَلِيلِ التَجَاوُزِيَةِ التِي يَتَمَيَّزُ بِهَا الفِكْرُ الغَرْبِيُ، ومَحْدُودِيَّةُ كَثِيرٍ مِنَ المَعَارِفِ فِي التَارِيخِ، مَا هِيَ سِوَى مَسْأَلَةٍ ثَابِتَةٍ يَقِينِيًا؛ لِأَنَّ النَاقِدَ حِينَمَا يَضَعُ مَنْهَجًا أو نَظَرِيَةً فِي تَحْلِيلِ نَصٍ أَدَبِي، لاَ يُمْكِنُهُ أَنْ يَتَصَوَّرَ نُصُوصًا أَدَبِيَةً خَارِجَةً عَنْ أُفُقِهِ المَعْرِفِي وثَقَافَتِهِ التَارِيخِيَةِ، كَمَا أَنَّهُ لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخْتَلِقَ مَنْهَجًا شُمُولِيًا يَنْهَضُ بِتَحْلِيلِ جَمِيعِ النُصُوصِ (مَحْدُودِيَةُ المَكَانِ)، بَلْ وَيُمْكِنُ القَولُ إِنَّهُ لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَصَوَّرَ ذَلِكَ أَو أَنْ يَسْتَوعِبَهُ، حَيثُ "بَدَأَ الاِلتِفَاتُ إلى مَا يُسَمَى بِمَنَاهِجِ النَقْدِ، مَعَ نَهْضَةِ العُلُومِ الطَبِيعِيَةِ فِي القَرْنِ التَاسِعَ عَشَرَ، وَقَدْ اِسْتَطَاعَ عَدَدٌ مِنَ البَاحِثِينَ وَالمُفَكِرِينَ، أَمْثَالَ "تين" "Taine" و"برونيتير" "Brantiere" و"هنكان" "Hennequin" و"لانسون" "Lanson"، وغَيرِهِمْ مِمَنْ اِسْتَعْمَلُوا خِلاَلَ ذَلِكَ العَصْرِ مَنَاهِجًا نَقْدِيَةً، ذَاتَ خَصَائِصٍ واِتِجَاهَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ، فَقَدْ اِزْدَادَتْ الاِهْتِمَامَاتُ بِمُعَالَجَةِ الظَوَاهِرِ الأَدَبِيَةِ، نَظَرًا لِمَا حَدَثَ فِيهَا مِنْ تَغَيُّرَاتٍ، نَتِيجَةَ تَغَيُّرَاتٍ اِعْتَرَتِ المُجْتَمَعَ والبِنْيَةَ الثَقَافِيَةَ مِنْ ذَلِكَ العَصْرِ، وَقَدْ كَانَ مِنْ مَظَاهِرِ هَذَا التَغَيُّرِ، تَغَيُّرُ نَظْرَةِ البَاحِثِينَ وَالمُفَكِرِينَ إلى مُعَالَجَةِ الظَوَاهِرِ الأَدَبِيَةِ، فَقَدْ ظَهَرَتْ الحَاجَةُ لَدَيْهِمْ إلى الاِسْتِعَانَةِ بِالمَنْهَجِ الوَضْعِي، الذِي اِرْتَبَطَ بِظُرُوفِ هَذِهِ المَرْحَلَةِ بِشَكْلٍ مُبَاشِرٍ"[14].

وإِذَا كَانَ البَعْضُ مِمَّنْ يَضَعُونَ المَنَاهِجَ والنَظَرِيَاتَ، يُحَاوِلُونَ جَعْلَهَا قَوَالِبًا ونَمَاذِجًا نِهَائِيَّةً، فَلاَ يُمْكِنُ لِلمُتَثَاقِفِ العَرَبِي أَنْ يَقْبَلَ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّ هَذَا الصِنْفَ مِنَ البَاحِثِينَ يَنْطَلِقُ مِنْ مَوْقِعِ المُتَفَوِّقِ والإِنْسَانِ الكَامِلِ، وَهُوَ اِسْتِصْغَارٌ وإِلغَاءٌ مُبَاشِرٌ لِلآخَرِ؛ أَيْ الأَنَا العَرَبِي، كَمَا أَنَّ العُلُومَ النِسْبِيَةَ لاَ يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ نَمُوذَجِيَةً؛ لِأَنَّ طَابَعَهَا هُوَ طَابَعٌ تَحَاوُرِيٌ بِالأَسَاسِ، عَلَى صَعِيدٍ آخَرٍ فَإِنَّ النُصُوصَ الأَدَبِيَةَ المُتَنَاوَلَةَ تَخْتَلِفُ مِنْ ثَقَافَةٍ إلى أُخْرَى، بِاخْتِلاَفِ الأُصُولِ اللُغَوِيَةِ والفِكْرِيَةِ، بَلْ وتَخْتَلِفُ فِيمَا بَيْنَهَا، بِاخْتِلاَفِ مُسْتَوَيَاتِ مُؤَلِفِيهَا وَظُرُوفِهِمْ النَفْسِيَةِ والاِجْتِمَاعِيَةِ وحَالاَتِهِمْ الذِهْنِيَةِ، مَا يَعْنِي أَنَّ الحُكْمَ عَلَى نَصٍ أَدَبِي مُعَيَّنٍ، لاَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مُجَرَّدًا عَنْ كُلِّ هَذِهِ السِيَاقَاتِ، ويَشْهَدُ لِذَلِكَ المَقُولَةُ النَقْدِيَةُ الشَهِيرَةُ، التِي تَرَى أَنَّ النَصَ هُوَ الذِي يَفْرِضُ مَنْهَجَهُ، وَبِذَلِكَ يُمْكِنُ إِجْمَالُ القَولِ بِأَنَّ عَلَى النَاقِدِ الأَدَبِي، الذِي يُمَارِسُ عَمَلِيَةَ المُثَاقَفَةِ أَنْ يُفَرِّقَ بَينَ مَا هُوَ نَمُوذَجٌ ومَا هُوَ نِسْبِيٌ مُتَغَيِّرٌ، وبَيْنَ مَا هُوَ مُعَبِّرٌ عَنْ ثَقَافَةِ الآخَرِ، ومَا هُوَ مُعَبِّرٌ عَنْ ثَقَافَةِ الأَنَا، فَالنَاقِدُ

الأَدَبِي لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمَارِسَ عَمَلِيَةَ المُثَاقَفَةِ النَقْدِيَةِ بَعِيدًا عَنْ إِدْرَاكِ مَوَاقِفِ الإِخْتِلاَفِ والإِتِفَاقِ بَيْنَ الأَنَا والآخَرِ، مِنْ حَيْثُ السِيَاقَاتِ المُخْتَلِفَةِ.

فَإِمْكَانِيَةُ تَحَقُّقِ المُثَاقَفَةِ مَعَ الآخَرِ تَرْجِعُ أَسَاسًا إِلى الوَعْيِ بِمَاهِيَّةِ الأَنَا والآخَرِ؛ لأَنَّ المُثَاقَفَةَ شَأْنٌ جَدَلِيٌ وَلَيْسَتْ اِسْتِقْبَالاً مَحْضًا؛ بِمَعْنَى أَنَّ النَاقِدَ الأَدَبِيَ مُلْزَمٌ بِإِدْرَاكِ طَبِيعَةِ المُرْسِلِ والمُرْسَلِ إِلَيْهِ، وإِذَا وَقَفْنَا عَلَى السِيَاقَاتِ العَامَةِ لِلآخَرِ، مِنْ حَيث الخَلْفِيَةِ التَارِيخِيَةِ والثَقَافِيَةِ، فَلاَبُدَّ عَلَيْنَا أَنْ نَسْتَعْرِضَ السِيَاقَاتَ الجَوْهَرِيَةَ، التِي أَسْهَمَتْ فِي تَكْوِينِ الأَنَا ثَقَافِيًا وتَارِيخِيًا وَوَاقِعِيًا، وَهُوَ مَا يُمْكِنُ أَنْ نُسَمِيهِ بِاسْتِجْلاَءِ الفَوارِقِ النِسْبِيَةِ بَيْنَ الأَنَا والآخَرِ، مِنْ خِلاَلِ مُكَوِّنَاتِ الأَنَا التَارِيخِيَةِ والثَقَافِيَةِ، التِي تَنْعَكِسُ بِصُورَةٍ آلِيَةٍ عَلَى المُكَوِّنِ النَقْدِي، بِاعْتِبَارِهِ جُزْءًا مِن المَاهِيَّةِ الكُلِّيَةِ، فَقَدْ "عَرَفَتْ النَهْضَةُ الأُورُوبِيَّةُ ظُهُورَ حَرَكَتَيْنِ فِكْرِيَتَيْنِ، تُكْمِلُ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى، هُمَا: النَّزْعَةُ الإِنْسَانِيَةُ، ونَشْأَةُ العُلُومِ الطَبِيعِيَةُ كَبَدِيلَيْنِ لِوُجْهَةِ النَظَرِ اللاَهُوتِيَةِ، فِي فَهْمِ الإِنْسَانِ والعَالَمِ، فَثَمَّةَ شَيْئَانِ يُمَيِّزَانِ عَصْرَ النَهْضَةِ عَمَّا سَبَقَهُ مِنْ عُصُورٍ: اِكْتِشَافُ العَالَمِ واِكْتِشَافُ الإِنْسَانِ"[15].

أَمَّا المَسْأَلَةُ الثَانِيَةُ التِي يَنْبَغِي مُرَاعَاتُهَا فِي عَمَلِيَةِ المُثَاقَفَةِ النَقْدِيَةِ، فَهِيَ طَبِيعَةُ البِيئَةِ والثَقَافَةِ العَرَبِيَةِ المُسْتَقْبِلَةِ؛ إِذْ أَنَّ البِيئَةَ العَرَبِيَةَ ذَاتُ طَبِيعَةٍ خَاصَةٍ، فَمُكَوِنَاتُهَا الثَقَافِيَةُ تَخْتَلِفُ عَنْ المُكَونَاتِ الثَقَافِيَةِ الغَرْبِيَةِ؛ وَهُوَ مَا يَعْنِي أَنَّ المَعْرِفَةَ، التِي تَتَلَبَّسُ بِلِبَاسِ بِيئَتِهَا، لاَبُدَّ أَنْ تُمَحَّصَ وتُكَيَّفَ، حتَى تَنْسَجِمَ مَعَ المُعْطَيَاتِ الثَقَافِيَةِ لِلبِيئَةِ المُسْتَقْبِلَةِ، "إِنَّ أَخْطَرَ مَا وَاجَهَهُ نُقَادُ الأَدَبِ، فِي العَصْرِ الحَدِيثِ فِي نَظْرَتِهِمْ إِلى الأَدَبِ العَرَبِي، هُوَ أَنَّهُم تَحَرَّكُوا مِنْ دَاخِلِ نَظَرِيَةِ الأَدَبِ الأُورُوبي، ومَفَاهِيمِهِ ومُقَوِّمَاتِهِ"[16].

وَهَذَا بِالنَّظَرِ إِلى أَنَّ هَذِهِ المَعَارَفَ، -المُتَمَثِلَةُ فِي المَنَاهِجِ والنَظَرِيَاتِ والمَفَاهِيمِ والمُصْطَلَحَاتِ ذَاتُ الطَبِيعَةِ المَرِنَةِ-، مَرَدُّهَا إِلى المَاهِيَّةِ النِسْبِيَةِ، التِي تُمَيِّزُ هَاتِهِ المَعَارِفَ، وَهَذِهِ القَضِيَّةُ هِيَ التِي عُدَّتْ مِحْوَرَ تَرْكِيزِ النَظَرِيَاتِ القِرَائِيَةِ مَا بَعْدَ البِنْيَوِيَةِ، بِحَيثُ تُؤَكِّدُ هَذِهِ النَظَرِيَاتُ عَلَى أَنَّ الطَبِيعَةَ العَقْلِيَةَ والثَقَافِيَةَ لِلبِيئَةِ المُسْتَقْبِلَةِ، تَتْرُكُ أَثَرَهَا عَلَى المَفَاهِيمِ المُسْتَقْبَلَةِ، بَلْ يَأْخُذُ القَارِئُ دَوْرَ المُؤَلِفِ والنَصِ والمَنَاهِجِ السِيَاقِيَةِ والنَصِيَةِ، فَيُعِيدُ إِنْتَاجَ المَفَاهِيمِ الوَافِدَةِ، وَقَوْلَبَتُهَا فِي قَوَالِبٍ تَتَّسِقُ مَعَ المُعْطَيَاتِ الثَقَافِيَةِ المَحَلِيَّةِ؛ إِذْ لَمْ "يَعُدْ وَارِدًا فِي النَظَرِيَةِ النَقْدِيَةِ أَنْ نَسْأَلَ: مَنِ القَارِئُ؟ وَلَكِنَّ السُؤَالَ الذِي صَارَ يَنْشُرُ نَفْسَهُ فِي البُحُوثِ النَظَرِيَةِ، هُوَ: مَا القَارِئُ؟ وَذَلِكَ مُنْذُ أَنْ أَصْبَحَتْ نَظَرِيَةُ القِرَاءَةِ هِيَ الأَكْثَرَ اِسْتِحْوَاذًا عَلَى الأَسْئِلَةِ، وعَلَى الاِجْتِهَادَاتِ والاِفْتِرَاضَاتِ، مِمَّا جَعَلَنَا نَعِيشُ فِي عَصْرِ القَارِئِ كَمَا اِسْتَشْعَرَ "بارت"، إِنْ لَمْ يَكُنْ فِعْلِيًا، فَفِي الأَقَلِّ عَلَى مُسْتَوَى التَنْظِيمِ والأَسْئِلَةِ[17].

وهذَا الفِعلُ الإِنتَاجِيُ من القَارِئ يَظهرُ فِي مُستَوِيَين: مُسْتَوَى سُكُونِي آنِي ومُسْتَوَى تَعَاقُبِي تَارِيخِي؛ بِمَعنَى أَنَّ القَارِئَ المُتَثَاقِفَ والنَاقِدَ العَرَبِي يُمَارِسُ العَمَلِيةَ التَثَاقُفِيةَ عَبْرَ فتَرَاتٍ زَمنِيةٍ مُتعَاقِبةٍ، لِيُكَوِّنَ مَعرِفَةً نَقدِيَةً، أَسَاسُهَا التَرَاكُمِيةُ والتَأْلِيفُ والمَزجُ بَينَ المَعَارِفِ المُتوافِدَةِ، ويُكَوِّنَ مِنْ جِهَةٍ أُخرَى مَعرِفَةً نَقدِيَةً وَاقِعِيَةً، تَتَمِيزُ بِصِفَتِهَا التَزَامُنِيَة، والجَمعُ بَينَ هَذينِ النَوعَينِ مِنَ المَعرِفَةِ النَقدِيةِ هُو الذِي يُنتِجُ إدرَاكًا وَاعِيًا بِطبِيعَةِ البِيئَةِ الثَقَافِيةِ المُرْسِلَةِ.

هوامش المحاضرة:

*** الأدب بنية مستقلة بشكل مطلق كما يرى الطرف الأول (النسقي)، وبنية متماثلة ومتطابقة مع المحيط الخارجي كما يرى الطرف الثاني (السياقي)، وبهذا نصبحُ أمام رؤيتين متباينتين في الظاهر؛ إذ يتم من خلالهما تأكيد عزل النص وإلغاء تفاعلاته المتنوعة مع الخارج من الجهة الأولى، أو إلغاء المسافة بين الأدب والواقع من الجهة الثانية، وهاتان الرؤيتان المتباينتان في الظاهر تشتركان بدعوى الحرص على تجسيد خصائص الظاهرة الأدبية، هذه الخصائص هي التي يُعبَرُ عنها بالقيم الجمالية أو بالبناء الفني أو بالأدبية.**

1. بشير الوسلاتي: مقاربات في الرواية والأقصوصة، منشورات سعيدان، سوسة، تونس، 2001، ص 07 .
2. سعيد بنكراد: السيميائيات (مفاهيمها وتطبيقاتها)، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سورية، 2005، ط2، ص10.
3. رولان بارت: نقد وحقيقة، تر: منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، 1994، ص20.
4. جوزيف كورتيس: السيميائية (الأصول، القواعد والتاريخ)، تر: رشيد بن مالك، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2008، ص230.
5. أحسن مزدور: مقاربة سيميائية في قراءة الشعر والرواية، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ص121.
6. رامان سلدن: النظرية الأدبية المعاصرة، تر: جابر عضفور، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1998، ص98.
7. إبراهيم السيد: نظرية الرواية (دراسة لمناهج النقد الأدبي في معالجة فن القصة)، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة مصر، 1998، ص24.
8. سعيد بنكراد: سميولوجية الشخصيات السردية (رواية الشراع والعاصفة لحنا مينا نموذجا)، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع والتوزيع، عمان، الأردن، 2003، ص10.
9. حميد لحمداني: بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 1990، ص20.
10.صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة عالم المعرفة، عدد 164، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أغسطس 1992، ص288.
11.نادية بوشفرة: مباحث في السيميائية السردية، الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، تيزي وزو، الجزائر، 2008، ص2.
12.صلاح فضل: مناهج النقد المعاصر، دار الآفاق العربية، مصر، ص101.
** حاولت البنيوية التكوينية خلق حلّ وسطي، تستطيع البنية اللغوية على أساسها أن تُثبت استقلاليتها من جهة (الداخل)، وأن تؤكد علاقتها بالبنى والأنظمة الأخرى الخارجية كالصراع الطبقي والنظام الاقتصادي والواقع الثقافي العام من جهةٍ أخرى، عكس البنيوية الأدبية التي في مفهومها العام رفضت ذلك الربط بين النظام اللغوي الداخلي للنصوص، بأي أنظمة أخرى خارجية (سجن البنية).
13.فؤاد أبو منصور: النقد البنيوي الحديث بين لبنان وأوربا، بيروت، دار الجيل، 1985م، ص22.
14.سمير سعيد حجازي: مناهج النقد الأدبي المعاصر بين النظرية و التطبيق، دار الآفاق العربية، القاهرة، 1428هـ/2007م، ص11.
15.فارح مسرحي: الحداثة في فكر محمد أركون، مقاربة أولية، منشورات الاختلاف، الجزائر، 1427هـ/ 2006م، ص27.
16.أنور الجندي: خصائص الأدب العربي، في مواجهة نظريات النقد الأدبي الحديث، مرجع سابق، ص55.
17.عبد الله الغذامي: تأنيث القصيدة و القارئ المختلف، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1999م، ص147.